

تاريخ مدينة سلا: العصر الذهبي

(613هـ/1216م – 869هـ/1465م)

ك: عن "موجز تاريخ سلا"،

تأليف: كينيث براون

تعريب: فضيلة الأستاذ محمد حبيدة

تقديم

استطاعت مدينة سلا، بفضل موقعها الجغرافي على ساحل المحيط الأطلنتي وجوارها لمنطقة الغرب الغنية بالقمح، من الاندماج في التاريخ العام لبلاد المغرب، من كل النواحي، اقتصادية وسياسية وثقافية ودينية. لقد ارتبط ميناؤها بالعواصم الداخلية، مثل فاس ومراكش، وعاينت سيولا من البشر والأفكار والبضائع، وساهمت في الكثير من الأحداث المؤثرة، من علاقة بالسلطة المركزية، وجهاد ومقاومة. وهذه الحركة هي التي صقلت تاريخ المغرب عبر القرون، بصفة عامة، وتاريخ المدن بصفة خاصة.

ومن جهة أخرى، يمكن القول أن هناك شبه بين سلا وفاس في بعض الأوجه، ومراكش في أوجه أخرى. فهي تضاهي مدينة فاس في رقة المعمار، وإن على نحو أقل جمالية، وينزوع نحو الانغلاق والاحتماء الذاتي. هذا مع العلم أن أهل سلا كانوا يقيسون أنفسهم بالفاسيين. وقد مثل أهل المدينتين، بالفعل، منارة للحضارة الإسلامية، ونموذجاً للخصال الروحية. أما مدينة مراكش، فتتقاسم معها طابع البداوة، ولو بصورة أقل حدة. وهذا ما عبر عنه لسان الدين ابن الخطيب عندما قال أن مدينة سلا جامعة بين الحضارة والبداوة. ومن الناحية الاقتصادية والديموغرافية، لم تكن سلا قط مركزاً اقتصادياً كبيراً في المغرب، إذ ظلت مدينة هامشية، على غرار المدن الحدودية، وانحصر دورها في الربط بين عواصم الشمال والجنوب. كما أنها لم تكن قط مدينة كبيرة، إذ تفيد أرقام القرن التاسع عشر أن ساكنتها ناهزت 14.000 نسمة. أما تقلبات الحركة السكانية فيجمل عنها كل شيء، وكذلك الأمر بخصوص نسبة الحضر والبدو في نسيج المدينة.

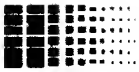
وتعتمد هذه الدراسة على كتابات مؤرخي المدينة، أمثال أحمد بن خالد الناصري ومحمد بن علي الدكالي. لقد اعتبرا مدينة سلا وأهلها طرازا حضاريا راقيا في المغرب بعد مدينة فاس، ونظرا إلى ماضيها من زاوية الإنجازات العظمى لأئمتها وعلمائها وأوليائها ومآثرها، وحاولا في تعاملهما مع هذا التاريخ إضفاء الشرعية على سمعة سلا كموطن لجماعة إسلامية فاضلة. وبالفعل، هذا ما اشتهرت به المدينة في مجموع البلاد.

تطور المدينة، العمارة والتجارة

شهدت مدينة سلا، وجارتها الرباط أيضا، حوادث دامية قبل استقرار المرينيين بها عام 1260. لما نهزم الموحدون، دخلت مدينة الرباط، التي كانت قد تضررت كثيرا من جراء المعارك، مرحلة من النسيان لمدة تفوق الأربعة قرون. ثم إن شالة كان قد أصابها الإهمال، وتحولت في عهد الدولة المرينية إلى مقبرة موقرة لسلطينها. أما سلا، فقد تعرضت لهجمة من طرف نصارى إسبانيا سنة 1260، إبان حكم بني مرين. وكانت هذه الهجمة هي الأولى والأخيرة التي عرفتها المدينة إلى حدود قدوم الفرنسيين سنة 1912. فقد كان المرينيون منهمكون في صراعات داخلية لما قام الإسبان بأمر من الملك ألفونسو يوم عيد الفطر من سنة 658هـ/1260، والناس يحتفلون بالعيد، بعملية إنزال بالمدينة وهاجموها بقوة. واستمر هذا الوضع أربعة عشر يوما، فأحرقوا ونهبوا وقتلوا وأسروا خلقا كثيرا. وأمام هذا الوضع، تحرك السلطان المريني أبو يوسف يعقوب على رأس الجيش وقصد المدينة ورفع عنهما الحصار القشتالي، وسعى إثر ذلك، بواسطة بعثة أرسلها إلى إشبيلية، في افتداء ثلاثة آلاف أسير، بمن فيهم قاضي سلا.

مع استرجاع المدينة اهتم السلطان بها، فكان أول أعماله بناء السور المقابل لوادي أبي رقرق. حقا أن الحاكم الموحدي، الناصر، كان قد أصلح السورين، الشمالي والشرقي في بداية القرن الثالث عشر، لكن الجهة الجنوبية ظلت غير محصنة. وقد مثلت الهجمة الإسبانية سنة 1260 أول تدخل أجنبي في أرض المغرب منذ مجيء الإسلام. ومن ثم كان على البلاد ومراسيها، وخصوصا مرسى سلا، أن تدرك المخاطرة القادمة من الخارج، وأن تستفيد في نفس الوقت من علاقاتها معه.

بعد هذا الحادث بقليل، شيد السلطان المريني أبو يوسف يعقوب "دار الصناعة". وهي ترسانة بحرية توجد بالزاوية الجنوبية الشرقية للمدينة، في الموقع الحالي للحي اليهودي المعروف بالملاح.



ويمثل باب مريسة صرحا عظيما لهذه المنشأة، يشهد على بهاء المدينة وعبقورية مهندسها الإشبيلي، ابن الحاج. كانت هذه الترسانة بمثابة حوض مائي متصل بالنهر بواسطة قناتين تمران تحت الباب. هنا بنيت، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، السفن التي استخدمها المغاربة في الهجوم على سواحل إسبانيا.

وعلى الرغم من هذه المناوشات البحرية بين المسلمين والنصارى، استمرت العلاقات التجارية مع أوروبا عبر البحر وتطورت، إذ كان للتجارة أثر بليغ على الحياة الاقتصادية في سلا، منذ أواسط القرن الثاني عشر على الأقل، وتحديدًا بفضل الذهب الذي كانت تجلبه إلى أسواقها قوافلُ السودان. وقد تم معظم الرواج مع الجمهوريات الإيطالية، وخاصة جمهورية جينوة. لقد كان التجار الجينويون يشترون من أسواق سلا الذهب والجلود والشمع والعسل، ويبيعون في المقابل سلعا كثيرة، في مقدمتها النحاس. أما القوافل الصحراوية فكانت تقتني مواد أوروبا المعروضة هناك، وتذهب بها إلى باقي مدن شمال إفريقيا. وهذه المواد الواردة من إيطاليا وكاتالونيا وأراغونيا، عبر سفن إشبيلية وفالنسيا وبرشلونة، هي زيوت الزعفران والأقمشة الملونة والكتان الإيطالي والحبر والخشب المصنع والقصدير والذهب والفضة في شكل قطع صغيرة وسبائك، وأيضا الأسلحة والمجوهرات والأحجار الكريمة. أما في اتجاه أوروبا فقد صدرَ السلاويون الكتان والنيلة والقطن والحبوب والفواكه الجافة ومواد أخرى، مثل الحلفاء ومسحوق الدباغة. وقد وفرت الرسوم الجمركية المفروضة على الرواج التجاري قسطا هاما من مداخيل الدولة المرينية.

ازدهار الثقافة.

ينبع التاريخ الثقافي في المغرب، كما يحتفظ به المؤرخون، من حياة فقهاء الكبار والمعالم المشيدة لاقتفاء آثارهم. لقد حظيت سلا بوجود علماء ومنشآت على السواء. ومن أفخم هذه المنشآت العمرانية المدرسة العظمى التي بنيت في أوج بني مرين عام 1340، إبان حكم السلطان أبي الحسن. هذه المدرسة، أو لمدرسة كما يسميها المغاربة، هي بمثابة ماوى للطلاب الواردين من خارج المدينة، حيث يقيمون ويأكلون. أما دروسهم فيتلقونها في المسجد المجاور. وتقع هذه المدرسة بحومة الطالعة، عند قدم الجامع الكبير، على يسار مدخله الرئيسي، في موقع كان يشغله، حسب ما يقال، قصر بني العشرة. وتتكون هذه المدرسة من فناء مستطيل، مفتوح، قياسه أربعة وعشرون قدما طولا، واثنى

عشر عرضاً، يتوسطه حوض من رخام، وتحيط به أربعة أروقة تعلوها غرف صغيرة للطلاب، من طبقتين. وتنفذ إحدى هذه الأروقة على الفناء، وهو مسجد للصلاة، به محراب وتعلوه قبة. وقد رصعت هذه المدرسة بزخارف قرمدية ونقوش على الجبس والرخام والخشب في غاية البهاء. وعند مدخل المدرسة، على اليسار، تظهر أشعار منقوشة على الجبس، تقول:

لعمري لقد مارست شتى المجالس ✦ ومازجت في الآفاق جل المدارس
وحدثت عن حمص وبغداد وانتهت ✦ إلى مسمعي أنباء كل مـمارس
وأنباني الركبان عن كل بلدة ✦ من المغرب الأقصى إلى أرض فارس
فما لاحظت عيني ولا شق مسمعي ✦ كهذا الذي أزرّت بكل منافس

مارست المدرسة نشاطها تحت رعاية إداراة الأوقاف بواسطة المداخل الواردة من الأملاك المحبسة عليها، والتي توجد داخل المدينة وخارجها. ازدهرت هذه المدرسة إبان العهد المريني، واعتراها الخلل بعد ذلك. وفي نهاية القرن الثامن عشر قام قاضي سلا، محمد بن حجي القاسم زنيبر، بترميمها واستأنف إصلاحها سنة 1864 ناظر الأحياس، محمد بن عبد الهادي زنيبر، باقتراح من أحد كتابه، المؤرخ أحمد بن خالد الناصري. وأخيراً، عملت مصلحة الفنون الجميلة التابعة لإدارة الحماية الفرنسية بتصنيف المدرسة ضمن المآثر الوطنية وواصلت أشغال ترميمها.

بفضل رعاية أبي الحسن المريني، تزودت المدرسة والجامع الأعظم بالماء الضروري للوضوء من عيون البركة، شرق المدينة على مسافة أميال. ويتعلق الأمر بقناة عالية هائلة تعرف باسم الأقواس، نسبة إلى أقواسها الثلاثة، كانت قد بنيت لهذا الغرض على نحو ميل تقريباً من جهة الشمال. كانت القناة بمثابة سور ثانٍ يحيط ببساتين المدينة ويحميها، هي والطريق الرئيسية الرابطة بين سلا وطنجة، التي لا تزال إلى اليوم تمر تحت أقواسها.

وتشهد بقايا مآثر أخرى على عظمة بني مرين وأهمية سلا كمركز للمعرفة والتقوى. وفي طليعتها المدرسة العجيبة التي تعرف بالبوعدانية، نسبة إلى بانيها، السلطان أبو عنان، أو بالماريستان. وهي في الوقت نفسه مستشفى صغير ومدرسة للطب، أقيمت في الفندق الذي كان يقيم به أبو موسى، قبل قرنين من الحكم المريني. وهذا المحل تشغله اليوم دار القاضي. وتُظهر صورة كتيبة التفتت سنة 1927 هيكل الباب المتهدم للفندق بزخارفه وفسيفسائه ونقوش أخشابه. وقد أيقظ هذا



الصرح أفكار ابن علي الدكالي عند نهاية القرن التاسع عشر حول التدهور الفكري للمغرب ومسبباته، عند قوله: «كان سوق الطب كسائر المعارف والعلوم رائجاً باقطار المغرب لاعتناء الملوك به. ولما تدهقر حال الدولة المرينية وضعف حال ملوكها، بطل العطاء وانقطع الإمداد، فهجرت المارستان، لاسيما وأنه يوجد في حارة اليهود [أي باب احسان التي شكلت الحارة الأصلية لليهود سلاً] ... فاشرف بناؤه على الخراب... وأعيد لحالته الأولى كما كان فندقا، وبقي شاهداً لحسن بنائه».

ونجد خارج أسوار سلا، في اتجاه الشرق، على بعد ستمائة متر تقريباً، على الطريق المؤدية إلى مكناس، بقايا ماثرة أخرى تعود إلى عهد أبي عنان. إنها زاوية النساك. لقد شكلت هذه الزاوية التي بنيت عام 1356 داخل مقبرة سيدي بلعباس، ملاذاً للمتعبدين من الفقراء والسائلين والزوار والغريباء. وتشير المصادر أيضاً إلى أن هذه الزاوية كانت تقع بقرية تدعى صبرة كانت تسكنها جماعة من الأشراف.

ارتبطت سمعة سلا، بكل تأكيد، بالعرفان والصلاح. ويظهر ذلك بجلاء، في المقام الأول، من خلال شخصية الأديب والسياسي لسان الدين ابن الخطيب الذي هجر غرناطة بعد أن شغل بها منصب وزير، واستقر بسلا لمدة ثلاث سنوات، من 1358 إلى 1361. لقد خلف شهادة ثمينة في حق هذه المدينة، إذ قال عنها أنها كانت جامعة بين البداوة والحضارة. كانت مزارعها تنتج القطن والكتان والعنب، وضواحيها تتوفر على مراعي جيدة وحقول خصبة، وكانت أسواقها تمتلئ بالطيب الشهوات، بل وحتى برقيق الحبشة، ومدارسها ومارستانها وزواياها وأضرحتها تجلب قاصدي المعرفة والتأمل والعزلة. ومن أشهر الأبيات الشعرية التي نظمها ابن الخطيب حول المدينة، تلك التي تتصل بمعنى الأصل العربي لكلمة سلا:

ولا نسخت كريـي بقلبي سلوة ✦ فلما سرى فيه نسيم سلا، سلا

ابن عاشر الطبيب، الصوفية في سلا

ثمة أشعار أخرى يرددها أهل سلا:

سلا كل قلب غير قلبي ما سلا ✦ أيسلو بفاس والأحبة في سلا
بها خيموا والقلب خيم عندهم ✦ فاجروا دموعي مرسلاً ومسللاً

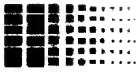
نظم هذه الأشعار المعبرة عن حس الأهل، عن الارتباط بسلا وناسها، الحاج أحمد بن محمد بن عمر بن عاشر الأنصاري، المعروف لدى عامة الناس بسيدي ابن عاشر "الطبيب"، الولي الشهير، دفين سلا، وسلطان صلاحها، حسب ما يعتبره البعض. ولد ابن عاشر في شمينية من بلاد الأندلس في أواخر القرن الثالث عشر تقريبا. عاش ودرس في مدن كثيرة، وحج إلى مكة قبل استقراره بسلا عام 1356.

كانت سلا، على غرار فاس، قبلة للصوفية خلال القرن الرابع عشر. لقد استقر ابن عاشر أول الأمر بشالة، مقبرة المرينيين، حيث توجد زاوية الحاج عبد الله اليابوري، وعلم القرآن هناك. ولما توفي شيخه انتقل للعيش بسلا في زاوية أبي زكرياء الكائنة بقرب الجامع الأعظم، حيث تعبد وكسب رزقه من استنساخ كتب الحديث. واشترى فيما بعد منزلا يازاء باب معلقة وبستانا صغيرا خارج باب سبتة. وهناك التزم الولي خلوة تامة. لكن سرعان ما بدأ الأتباع يردون من مدن أخرى للتقرب منه، في مقدمتهم ابن عباد الرندي الذي وجد بسلا راحة بدنية وروحية لم يحصل عليها بفاس لكثرة الفتن بها.

هكذا اتسعت شهرة ابن عاشر بسرعة. وبدأت ترد على المدينة جماعات من الزوار من مكناس وفاس للتبرك بالولي والتعبير له، حسب إحدى شهادات معاصريه، عن اعترافهم بـ"تفوقه الروحي البين". وتروي النصوص أن ابن عاشر كان شديد الإشمئزاز من تملق قاصديه. لقد ذكر ابن الخطيب مدى صعوبة لقاء هذا الولي بسبب كثافة هيئته. فقد رآه ملازما للقبور في الخلاء، رث الهيئة، مطرق اللحظ، كثير الصمت، شديد العزلة. وترسم أقوال أتباعه، حقا، صورة ولي مهيب، كثير الخشية، لا يجرؤ المرء على التحدث إليه إلا إذا بادر هو إلى ذلك. لكنه كان "ولي الله" في نظر الناس، عارفا بأمور الدين دون زيادة أو نقصان، وهي من الشروط البيئية لشريعة الإسلام.

وتعكس أخبار التاريخ حول فشل أبي عنان في زيارة ابن عاشر، أهمية هذه الخصال الروحية. فقد وقف السلطان ببابه مرارا، لكن الولي أصر على رفضه اللقاء به. غير أنه قبل في الأخير أن يرسل إليه كلمة ذكره فيها بكل بساطة بواجباته الدينية. فاكتفى السلطان بذلك وطلب منه فقط أن يدعو له بالنصر في جهاده ضد نصارى إسبانيا، وبالحج إلى بيت الله الحرام.

تختلط في هذه التراجم الوقائع بالأساطير. وما حياة ابن عاشر إلا نموذجا لذلك، إذ أن ما تحكيه كتب المناقب، حتى وإن كانت بقلم المعاصرين للأولياء، ننحو إلى إضفاء المثالية على حياة هؤلاء. ومع



ذلك تمنحنا نظرة عميقة حول القيم الاجتماعية، الحقيقية أو المفترضة، وأفعال الناس وطباعهم. لكن، يبقى تفسير الملاحظات ضروريا.

الأولياء والتصوف،

يشير التعبير المجازي للقرن الرابع عشر، بصدد كرامات ابن عاشر، مثل إزهار الورد في الغصن الجاف، وسيلان العسل من الصخر، إلى الاعتقاد بحدوث عجائب نتيجة التبرك بقبر الولي والتنسك بضريحه. ويستلزم الحديث عن الكرامات التمييز بين تصور الخاصة من سكان الحاضرة من جهة، وعامة الناس من جهة ثانية، الحضر منهم والبدو، حتى النساء منهم. فقد ينصت الفقيه إلى ما يروى حول هذه الكرامات فيقبلها دون جدال أو ينفيها. لكنه لا يبتكر مثل هذه الروايات أو يرددها أو يرفضها علانية، لأنه يؤمن بالقوة الإلهية اللامتناهية وقدرتها على كل شيء. هكذا يحكي ابن علي الدكالي حياة ابن عاشر وفق ما تقدمه النصوص المكتوبة، ويضيف فقط، دون زيادة، بأن كرامات هذا الولي وعجائبه لازالت تحظى بمكانة لدى أهل سلا.

هذه الكرامات والعجائب لازالت حية إلى اليوم في المخيال الجماعي. ويبدو أن شهرة ابن عاشر كطبيب تعود في الأصل إلى رواية حول أحد صلحاء الرباط، سيدي التركي، ومفادها أن تركبًا جوهريا، وفي رواية أخرى صياد مرجان، كان يعاني في القرن الثامن عشر، من انحصار لؤلؤة بداخل أنفه، وأنه زار أشهر الأطباء دون جدوى، وفي الأخير حج إلى قبر سيدي ابن عاشر. فلما وصل إلى المقبرة، ووقف على تواضع قبرة استخف به وقال: «كيف لي أن أثق في قبر مهجور وقد فشل في علاجي أطباء كبار». فما أن فاه بهذه الكلمات حتى أخذته عطسة، فسرحت أنفه من الحجر المذكور. فبنى له ضريحا، وبعد ذلك بقليل ظهر له الولي في منامه ودعاه إلى التنسك. هكذا أنهى حياته وليا صالحا، وصار قبرة بالرباط مزارا يتبرك بها البحارة والصيادون بالخصوص.

منذ القرن السابع عشر أصبح قبر سيدي ابن عاشر قبلة للزوار. أما ضريحه، بقبته العظيمة وجناحيه، فقد بناء السلطان مولاي عبد الله بن إسماعيل سنة 1733، في الركن الأيسر من المقبرة التي تحمل اسم الولي. وقد عرف الضريح سلسلة من الإصلاحات بعد هذا التاريخ. في سنة 1844 جددت القبة بأمر من السلطان مولاي عبد الرحمان، ثم وسعت أجنحته ببناء بيوتات إضافية على نفقة أحباس سلا. واستمرت الترميمات في نهاية القرن التاسع عشر بفضل هبات بعض أعيان المدينة، أمثال

الأمين عبد الهادي زنيبر، والقاجر الحاج أحمد الصابونجي. وازدادت زيارة الضريح عندما أصبح به مارستانا لعلاج المرضى والمجانين. هكذا، في الوقت الذي كانت فيه بيوتاته تاوي المرضى، كان بهوه الرئيسي يستقبل عددا كثيرا من الزوار يوميا من داخل المدينة وخارجها. ومن جهة أخرى احتضن الضريح موسما سنويا لترتيل الأذكار وتنظيم أمداح "الحضرة"، في أيام عيد الأضحى. أما رعاية الضريح فهم أولاد اعمار الذين يدعون الانتساب إلى الولي أو إلى أحد أتباعه. وتعترف السلطة بحقوقهم في الهدايا التي يأتي بها الزوار. فكل رجل متزوج له نوبته في رعاية الضريح والاستفادة من الزيارات. وتعتبر عائلة أولاد اعمار من أعرق عائلات سلا وأشدها احتراماً. ويعتقد بعضهم امتلاك بركة الولي. ويتصاهر عدد كثير منهم مع الحسونيين، حفدة أحد أتباع سيدي عبد الله بن حسون.

تكتسي كرامات سيدي بن عاشر صبغة أسطورية، لأنه، بغض النظر عن شفاؤه لذوي العمى والمقعدين والمجانين، يعتقد الناس أن بركته تهدأ أمواج البحر. لذلك كان قراصنة سلا يدخلون المرسى بسفنهم وغنائمهم وأسراهم وهم في ثقة من أمرهم. وهذا هو الاعتقاد الذي فسره به أهل سلا عجز البحرية الفرنسية سنة 1844 الاقتراب من ساحل المدينة بسبب هيجان البحر، بعدما كانت قد قصفت طنجة والصويرة.

لقد تحولت الشخصية التاريخية لسيدي ابن عاشر من أسلوب صوفي، على النحو الذي نلمسه في القرن الرابع عشر الهجري، إلى اعتقاد استشفائي وحمائي خصت به المدينة نفسها خلال القرون الأربعة المئوية. وهذا التحول يعكس بوضوح التغير الكبير الذي حصل في المغرب إبان هذه الفترة، إذ بعد مرور بضع سنوات على وفاته سنة 1362، عاد أحد أتباعه إلى سلا فوجدها "قفرا"، دون حركة فكرية أو روحية، دون كتب أو مواسم، دون أصدقاء أو أحبة. فقد تراجعت أوساط الصوفية واضمحلّت الأنشطة الدينية في المدينة.